الفئات والشرائح

التي تستقطبها الحراكات الجماهيريّة والدعوات الثوريّة المتطرّفة

Follow us : @Tamaddoun

من كتاب: **المؤمن الصادق** – أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيريّة (من ص ٥٤ لغاية ص ١٠٤)

المنبوذون والمهمّشون (المتذمّرون) هم المادة الخام التي تعتمد عليها الحركات الجماهيريّة على أنواعها وكذلك الحركات المتطرّفة التي تنادي بالتغيير والثورة. وعلى الرغم من أن المتذمّرين يوجدون في كلّ مجالات الحياة، إلا أنهم يوجدون بكثرة في المجالات الآتية:

١. الفقراء
٢. العاجزون عن التأقلم
٣. المنبوذون
٤. الأقليّات
٥. المراهقون
٦. شديدو الطموح (سواء وجد طموحهم المجال، أم لم يجده)
٧. الواقعون تحت تأثير رذيلة، أو عادة أرمانيّة
٨. العاجزون (جسدياً أو عقلياً)
٩. المفرطون في الأنانيّة
١٠. المللولون
١١. مرتكبو المعاصي.

وسيتمّ الحديث عن معظم هؤلاء الفئات فيما يلي.

أولاً: الفقراء:

بداية تجدر الإشارة إلى أن ليس كلّ الفقراء محبطين، فبعضهم يرتعد خوفاً من العيش خارج المحيط التعيس الذي ألفه والبعض الآخر وخصوصاً ممن طال أمد فقره، يشلّه إحساسه بأن الأوضاع القائمة أشياءٌ ثابتة يستحيل أن تتغيّر. أما محدثو الفقر – أي الفقراء الذين لم يطل عهد فقرهم -هم الذين يشعرون بالإحباط، لأن ذكرى الأشياء التي فقدوها لا تزال حيّة في وجدانهم. فهؤلاء المحرومون هم الذين يسارعون إلى الالتحاق بأية حركة جماهيريّة صاعدة.

إن البؤس بحدّ ذاته، لا يقود تلقائياً إلى التذمّر، كما أن التذمّر غير مرتبط بدرجة البؤس. يبلغ التذمّر أعلى درجاته حين يكون البؤس محتملاً، أي عندما تتحسّن الأوضاع على نحوٍ يسمح بالاعتقاد بإمكان تحسّنها أكثر فأكثر.

درجة التذمّر تتناسب عكسياً مع درجة البعد عن الهدف المنشود، فكلّما اقتربنا من الهدف، كلّما زاد التذمّر، وكلّما ابتعدنا عنه خفّ التذمّر.

إحباطنا عندما نملك الكثير ونريد المزيد يفوق إحباطنا عندما لا نملك شيئاً ونريد القليل. ونحن أقلّ تذمّراً حين نفقد أشياءَ كثيرة منّا حين لا نفقد إلا شيئاً واحداً. ونحن نغامر في سبيل الحصول على الكماليّات أكثر مما نغامر لكي نحصل على الضروريّات.

{يلجأ الناس إلى الحركة الجماهيريّة، ليتحرّروا من ثقل المسؤوليّة الفرديّة}

ثانياً: العاجزون عن التأقلم: (من ضمنهم المراهقون والعاجزون جسدياً أو عقلياً)

هناك عدّة مستويات من العجز على التأقلم تتراوح في شدّتها:

أ- العاجزون عن التأقلم بصفة مؤقّتة: وهم أولئك الذين لم يجدوا بعد موقعهم في الحياة ولكنهم لا يزالون يأملون في الحصول عليه. ينتمي إلى هذه الفئة: المراهقون، خريجو الجامعة العاطلون، الجنود المسرّحون، المهاجرون الجدد. حيث نجد هؤلاء قلقين متذمّرين يسيطر عليهم الخوف من أن أحسن سنوات عمرهم سوف تذهب هدراً قبل أن يحقّقوا أهدافهم. بالمقابل فإن هؤلاء لم يفقدوا الصلة نهائياً مع أنفسهم، فهم لا يعدّون حياتهم ميؤوساً منها بالكامل، لذلك فإن أقلّ بارقة أمل تعيدهم إلى التأقلم مع العالم ومع نفوسهم.

ب- العاجزون عن التأقلم عجزاً دائماً: وهو أولئك الذين لا يستطيعون بسبب نقصٍ في الموهبة أو عيبٍ آخر لا يقبل العلاج في الجسم أو العقل، من تحقيق الشيء الوحيد الذي يصبو كيانهم كلّه إلى تحقيقه. ولذلك فإن هؤلاء لا يرون الخلاص إلا في الانفصال التام عن أنفسهم وهم يجدون هذا الانفصال عادةً في الرابطة الجماعيّة الصلبة التي توجدها الحركة الجماهيريّة. فعندما يتحرّرون من الإرادة الفرديّة، والمنطق الفردي، والطموح الفردي وعندما يكرّسون كلّ جهودهم لخدمة القضيّة الخالدة، عندها فقط يستطيعون الإفلات من جهدهم الفردي العبثي الذي لا يقود إلى نتيجة.

ت- العاجزون عن التأقلم الأكثر تطرفاً: إن أشدّ المتطرّفين إحباطاً، ومن أكثرهم تطرّفاً، بين العاجزين عجزاً دائماً عن التأقلم، أولئك الذين يحترقون شوقاً للإبداع دون أن يتمكّنوا من ذلك، كالذين يحاولون أن يكتبوا أو يرسموا، أو يؤلّفوا الموسيقى وغيرهم، ويفشلون فشلاً تاماً، بالإضافة إلى الذين تذوّقوا نشوة الإبداع ثم خبت الجذوة بلا أملٍ في عودتها. كلّ أولئك يشعرون بيأسٍ خانق، وأي شهرة أو ثروة أو سلطة أو غيرها من الإنجازات لا تنجح في ريّ غليلهم. وحيث يظلّ جوعهم مستعراً، يتحوّلون إلى أكثر المتطرّفين عنفاً في سبيل قضيّة مقدّسة.

ثالثاً: الأنانيّون أنانيّة مفرطة:

كلّما زادت أنانيّة الشخص كلّما كانت خيبته أشدّ إيلاماً، ومن المفارقات هنا، أن الأنانيّين أنانيّة مفرطة هم الذين يُحتمل أن يصبحوا أبطال الدعوة إلى إنكار الذات.

إن أشدّ المتطرّفين عنفاً كثيراً ما يكونون أشخاصاً أنانيّين أجبروا، بسبب عيب شخصي أو ظروف خارجة، على فقدان الثقة بأنفسهم، الأمر الذي يدفعهم إلى أن يسخّروا سلاح أنانيّتهم الفرديّة لخدمة قضيّة مقدّسة.

رابعاً: الطموحون الذين يواجهون فرصاً غير محدودة:

قد تكون الفرص غير المحدودة سبباً في الإحباط، شأنها شأن الفرص النادرة أو المعدومة. فعندما تكون فرص المستقبل بلا حدود، فلا بدّ أن ينعكس هذا على هيئة رفض للحاضر، وبالتالي يعتبر هذا الشخص أن كل ما يقوم به لا يعادل شيئاً، مقارنةً بما يمكن أن يحقّقه في المستقبل.

هذا النوع من الإحباط نجده عند المغامرين الباحثين عن الترهيب، كما نجده في كثير من العقول خلال فترة الازدهار الاقتصادي.

إن نداءات الثورة تجد استجابةً بين الأشخاص الذين يرون فرصاً لا حدود لها في المستقبل تفوق الاستجابة التي توجد بين أشخاص يعيشون حياةً يوميّة رتيبة يمكن توقّع كلّ ما فيها.

خامساً: الأقليّات:

إنّ وضع الأقليّات حرجٌ دوماً، بغضّ النظر عن الضمانات المستمدّة من القانون أو من القوّة التي تتمتّع الأقليّة بها. إن الإحباط الذي ينشأ من عدم الشعور بالأمن ينقص في حالة الأقليّة التي تنوي أن تحافظ على هويّتها، ويزيد في حالة الأقليّة التي قرّرت التفكّك والذوبان في المجتمع.

إن الأقليّة التي تحافظ على هويّتها تشكّل كلاً مترابطاً يحمي الفرد ويعطيه شعوراً بالانتماء وتحصّنه ضدّ الإحباط. بالمقابل فإن الأقليّة التي تنوي الاندماج، يجد الفرد نفسه فيها واقفاً بمفرده يواجه التفرقة العنصريّة والاضطهاد. وفوق ذلك يعاني شعوراً بالذنب، مهما كان هذا الشعور غامضاً أو باهتاً.

إن الشخص الذي يفشل يشعر بعدم الإنتماء، وعندما يكون فرداً من أقليّة تنوي الذوبان في الأغلبيّة، فإن شعوره بالفشل يتضاعف مع شعوره بعدم الانتماء إلى الأغلبيّة. ونجد الشعور نفسه في أفراد الأقليّة الذين وصلوا إلى قمّة السلّم الاقتصادي والثقافي. هؤلاء ينجحون في الحصول على الثروة والشهرة، لكنّهم يجدون من الصعب أن يخترقوا دوائر النجاح المغلقة على الأغلبيّة، ومن هنا يبدأ إحساسهم بالغربة. وبالإضافة إلى هذا الإحساس، فإن ثقتهم في تفوّقهم الفردي تجعلهم ينفرون من الاعتراف بالنقص الذي

يواكب عمليّة الاندماج. لهذا نرى أن أقلّ الناس نجاحاً وأكثرهم نجاحاً في أقليّة تنوي الذوبان هم الأكثر استجابة لنداء الحراكات الجماهيريّة.

سادساً: المللولون:

من أبرز المؤشّرات وأدقّها على نضج المجتمع للحركة الجماهيريّة، هو انتشار الملل الذي لا ينفع معه علاج. وفي كلّ التحليلات التي تتناول فترات ما قبل الحركة الجماهيريّة هناك دائماً إشارة إلى شعور عام باللامبالاة، وتجد الحركة الصاعدة من المتعاطفين والمتحمّسين بين المللولين أكثر ممّا تجده بين ضحايا الاستغلال والظلم.

إن الذي يحاول نشر حركة جماهيريّة، يستبشر حين يرى الناس يعانون الملل الخانق، مثلما يستبشر حين يجدهم يعانون وطأة ظلامات اقتصادية أو سياسيّة لا تطاق.

والمصدر الأوّل للملل هو الشعور بخواء الحياة، وبافتقارها إلى أي معنى. فالإنسان لا يشعر بالملل عندما يكون منهمكاً في عمل إبداعي، أو في مهنة تستنفد طاقاته، أو في صراع دائب من أجل العيش.

والملل يفسّر لنا ظاهرة أخرى تتعلّق بكثرة المشارِكات في الحراكات الجماهيريّة -وخصوصاً في بداياتها-من فئة العوانس والسيّدات اللّواتي تجاوزن منتصف العمر، حيث يكون هناك هدفٌ جديد ومستقبل جديد وهويّة جديدة بالنسبة لهنّ. فالملل الذي تشعر به العوانس والنساء اللّواتي لم يعد بوسعهنّ العثور على السعادة والرضا في الزواج، ناتج أساساً عن الضيق الذي يشعرن به بسبب حياتهنّ الفاشلة. وعندما يعتنق هؤلاء النسوة قضيّة مقدّسة يسخّرن لها وجودهنّ كلّه وطاقاتهنّ كلها، فإنهنّ يجدن حياةً جديدة مليئة بالمعنى والهدف.

سابعاً: مرتكبو المعاصي:

كثيراً ما تكون الوطنيّة المحمومة، أو الحماسة الدينيّة أو الثوريّة، مهرباً من تعذيب الضمير، وسعياً للخلاص من حياةٍ ملوّثة. فالشعور بالظلم أو الشعور بالندم يدفعان الناس في الإتجاه نفسه.

يظهر أحياناً أن الحركات الجماهيريّة مصمّمة خصّيصاً لتلائم احتياجات مرتكبي المعاصي، من حيث تطهير نفسه وإتاحة الفرصة له لممارسة نزعاته ومواهبه. فأسلوب الدعوة إلى الحركة يهدف لإثارة شعور المجرم التائب في نفوس الأتباع. وذلك لأن الاستسلام التام، هو المصدر الذي يمدّ الحركة بوحدتها وحيويّتها. فمن الواضح أنّه لا يوجد ما يستوجب التضحية أو الندم ما لم يكن هناك شعورٌ عميق بالذنب.

لذلك فإن الحركة أوّل ما تنمّي عند أتباعها شعوراً عميقاً بالذنب، حيث أنها لا تكتفي بتصوير نفس الفرد على أنها عميقة وبائسة، بل تضيف أنها ملوّثة. وبالتالي فإن الاعتراف والندم هما سبيل الفرد إلى التخلّص من ذاته، وبهذا يفتح أمامه باب الخلاص وهو: الذوبان في الوحدة المقدّسة التي تتيحها الحركة، لهذا نرى أن الحركات الجماهيريّة بأجمعها تتعاطف مع المجرم وتحاول بكلّ الوسائل اجتذابه.

ولعلّه من الصحيح أن المجرم الذي ينخرط في قضيّة مقدّسة يصبح أكثر استعداداً للتضحية بحياته والقيام بأعمال عنفيّة من غير المجرم الذي يقدّر حريّة الأنفس والأموال.

ملاحظات هامّة حول التطرّف:

- قدر المتطرّف أن يشعر بالنقص وفقدان الثقة، إذ إنه لا يستطيع أن يستمدّ الثقة من قدراته الذاتيّة، أو من نفسه التي تنكّر لها، ولكنّه يجدها في الالتصاق المتشنّج بالكيان الذي احتضنه. ويجد في هذا الالتحام ما يحفّزه على الولاء الأعمى الذي يشبه التديّن، ويجد فيه ما يشبه نبع الخير والقوّة، بالمقابل يرى نفسه جندياً يحمي القضيّة المقدّسة التي اعتنقها. والمتطرّف على استعداد للتضحية بحياته لكي يثبت لنفسه وللآخرين، أن هذا بالفعل هو دوره، أن يضحّي بحياته: ليثبت أهميّته.
- شعور المتطرّف بالثقة مستمدّ من شعوره المتشنّج بالقضيّة، لا من كون القضيّة سامية بالفعل. من هنا لا نستطيع أن نعدّ المتطرّف إنساناً متمسّكاً بالمبادئ: إنه يعتنق قضيّة ما، لا بسبب عدالتها أو سموّها، ولكن لحاجته الملحّة إلى شيء يتمسّك به. لهذا يعدّ المتطرّف أي قضيّة يعتنقها قضيّة مقدّسة.
- ليس بالإمكان إبعاد المتطرّف عن قضيّته بالمنطق والنقاش. يخشى المتطرّف أنصاف الحلول، وكذلك يستحيل إقناعه بأن يخفّف من حدّة إيمانه المطلق بعدالة قضيّته المقدّسة. وبرغم ذلك فهو لا يجد صعوبة في القفز فجأة وبقوّة، من قضيّة مقدّسة إلى قضيّة مقدّسة أخرى. لهذا لا يمكن إقناع المتطرّف ولكن يمكن تحويله إلى قضيّة أخرى، فالأساس عنده هو الالتحاق بقضيّة بغض النظر عن نوعيّتها.
- من المستبعد أن يستطيع المتطرّف الذي هجر قضيّته المقدّسة، أو الذي وجد نفسه فجأةً بلا قضيّة، أن يتأقلم مع وجود فردي مستقلّ. الأغلب أنه سيبحث عن قضيّة أخرى، شأنه شأن المسافر المفلس الذي ينتظر مرور سيّارة تحمله مجّاناً. إن الوجود الفردي حتى عندما يكون ذا معنى، يبدو في عين المحبط تافهاً وغير مجدٍ، أشبه ما يكون بالخطيئة. لهذا يظلّ المتطرّف متعطّشاً إلى تلك الثقة المطلقة التي لا تجيء إلا بالاستسلام الكامل والالتحام قلباً وقالباً بعقيدة وقضيّة، بمعزل عن طبيعتها حتى لو كانت معارضة لقضيّته السابقة، شرط أن تكون حربها شاملة متطرّفة لأبعد الحدود.